قصة قصيرة: صناعة العملاء في مدينة حاسي مسعود الجزائرية

حلمي صابر ١٤٤٣هـ

" يأتي عليك زمان يمتلئ فيه
صدرك بكلام إن أخرجته آذوك
وإن أبقيته آذاك.. "

" اسمعني أيها السكرتير الذكي فريد "خاطب منير صاحب شركة خدمات الموارد البشرية سكرتيره رافعا صوته:
أريدكَ أن تحصيَ كل الشركات التي تتعاقد مع الحقول النفطية في حاسِي مسعود - (مدينة جزائرية نفطية) -
وتعرفَ الموظفين الإنجليز الإداريين الذين على وشك التقاعد خاصة أولئك الذين يعملون في الخدمات الإدارية التي
تكون قسم العقود تحت إدارتهم.
لا أريد وطنيين. أريد فقط الإنجليز. لا تجلبْ لي فرنسيين.
في السرقات لن تجد أفضل من الإنجليز. عندهم ضعف فطري مع المال. فاهمني ؟

فريد: طبعا أفهمك. والفرنسيون الذين تعاملنا معهم من قبل ؟.
منير: لا أريد من استخدمناهم لئلا تحوم الشكوك حولنا.
فقط إنجليز ومناصب إدارية، وعلى وشك التقاعد.
فريد: ولا يهمك، يومان أو ثلاثة بالكثير والمعلومات عندك.
بعد أيام، رجع فريد ووضع القائمة أمام منير وناقشا الأسماء والمناصب والخبرات :
منير: ممتاز أريد هؤلاء الثلاثة: براون، متشل، فرانك، وهؤلاء الثلاثة سيجلبون البقية
أجاب فريد بدون تساؤل وتردد : وهو كذلك.

اختصارا للقصة وعدم الدخول في التفاصيل، - لا يصلح ذكر بعض التفاصيل ؛ لأن ذكرها فيه تعليم للقارئ كيف يخون ويسرق - أقول: استطاع هؤلاء الثلاثة بعد توظيفهم في شركة خدمات الموارد البشرية في فروع في مناطق مختلفة من الجزائر. استطاعوا بكل بساطة معرفة أسعار الوظائف التي قدمتها الشركات الأخرى؛ فجعلوا الأسعار أقلَ من غيرهم. فمن الطبيعي بقانون " أقل عرض " ستفوز شركة منير بالعقود الجديدة. وهكذا استمرت المؤسسة لمدة عشر سنوات.

جاء أيمن مدير جديد في إدارة إنتاج النفط في الشركة الوطنية المملوكة للدولة، وصار يراجع التقارير الإنتاجية والمالية والأسماء وصغار الموظفين وكبارهم وترقياتهم، وعلاواتهم السنوية. وطلب من مهندسيه وإدارييه أن يعطوه تقريرا عاما عن الإدارة وخدماتها ومعايير تقييم أدائها وتقارير المقاولين ذات العقود الطويلة والقصيرة وغيرها من المعلومات ليدير الإدارة. نظر أيمن إلى تقارير العقود وقال لنفسه هذا (بزّاف) باللهجة الجزائرية : كثير

مع مضي الأيام وقراءة التقارير والنزول الميداني، لفتَ انتباهه فوز شركة خدمات الموارد البشرية بكثير من العقود في حاسِي مسعود وفي الولايات الأخرى. أتصل بصاحبه الهواري في قسم التحقيق والتدقيق في الإدارة المالية سأله (وينتا / وقتاش نلتقي) : في أي وقت ؟ .

ألتقيا في الصالة الرياضية أثناء فترة الغداء. تحدثا في موضوعات مختلفة وأخبر أيمن صاحبه الهواري بما لاحظه في موضوع العقود. طلب الهواري فرصة ليدقق في المعلومات. ثم ألتقيا بعد أسبوعين في بيت أيمن مع خبزٍ ومرقة حمراء. و (نتشوبة) سلطة مصنوعة من الطماطم والأنشوجة والزيتون والثوم. وشوربة الحريرة.

الهواري: لو سمحت الفرشيطة (الشوكة) والمُغَرْفَة (الملعقة) حابني نُوكل بيدي؟
أيمن: تفضل.

بعدما انتهيا من الطعام. اسمعني يا أيمن: اعتقد ملاحظتك بحاجة إلى فحص واختبار. قال الهواري سأتولى الأمر، وسنبدأ بمكتب براون، سنغير السكرتيرة أمانويل، بسكرتيرة جديدة متخصصة في تدقيق العقود. قال أيمن: شغل جواسيس ؟. رد عليه الهواري: ولا غير ذلك.
أضاف الهواري: أنا عموما عندي حساسية من الإنجليز في المناصب الإدارية. حتى صار عندي قانونا، أينما وجدت إنجليزيا، فهناك تلاعب ما، كلامي هذا ليس من فراغ.

سأل أيمن: هل تحب أن نجتمع بصاحب شركة خدمات الموارد البشرية ؟
أجابه الهواري: هذه مشكلة، سنضطر إلى التنسيق مع إدارة الأمن. وأنا لا أريد أن يتوسع الموضوع في هذه المرحلة، لئلا تختفي علينا معلومات مهمة. والأمن لا يخلو من فرنسيين وإنجليز، فالتسريب وارد، نريد وطنيون يعملون لمصلحة الوطن. هذا كان توضيح المدقق المالي الهواري.

تصدق يا أيمن. أنا لا أحب شركة خدمات الموارد البشرية ، حينما أنزل إلى والدي في الغرداية وأرى سيارات الخدمات لشركتهم هذه التي تنظف الغبار في الشوارع. سياراتهم لا تقوم بالخدمة بطريقة صحيحة. ترمي الغبار من جهة إلى جهة أخرى، المفروض أن السيارة تمتص الغبار كاملا ولا يخرج منه شيئا.

لكن، سياراتهم في مبنى الإدارة في حاسِي مسعود تختلف في الماركة والجودة؛ فلا ترى نقطة غبار تتطاير. هنا في حاسِي مسعود يشتغلون في الصباح، وفي الغرداية يشتغلون بعد منتصف الليل !. هل لئلا يلحظ أحدٌ عبثهم هذا ؟.
أجاب أيمن: كل شيء ممكن. من غشَّ في الغبار، سيُغبِّر في الأموال.
الهواري: كل شيء جائز.
أيمن: لِمَ لَمْ تبلغ البلدية بهذا ؟
الهواري: معذرة لا أثق بأحد. العملُ في التدقيق المالي غيَّر تصوراتي ! صرت أشكُ بكل أحدٍ، حتى في نفسي بعض الأحيان.
أضاف الهواري: عموما، سأخبرك لاحقا بنتائجنا مع السكرتيرة الجديدة إليدا.
أيمن: في انتظارك.
مضت أشهر، وبعد عمليات أمنية دقيقة، استطاع فريق الأمن اصطياد متشل الإنجليزي متلبسا باختلاس أربعة ملايين دولارا. وفي غرفة التحقيق. قال المحقق الأمني لمتشل: من مصلحتك التعاون معنا؛ لئلا نصادر جميع أموالك وحقوقك المالية. عندك فرصة واحدة للنجاة وهي موافقتنا باستبدالك مع مساجين وطنيين في بريطانيا. قد نرفض استبدالك، وتبقى هنا.

قال المحقق الأمني: إذا كانت معلوماتك كاذبة، وغير دقيقة، وغير مُفصَّلة، فأحذرك تحذيرا شديدا بذكر أية معلومة غير صحيحة، فستكون زنزانتك قبرك الذي حفرته بيديك. فلا تلُمْ إلا نفسك. لن نطلب منك ذكر الأسماء في هذا التحقيق. بل ستكتبه بخط يدك لاحقا.

سأل المدقق الأمني متشل: هل كلامي واضحًا ؟ هل تريدني أن أعيده ؟. سأتركك الآن وفكِّر في الأمر، وسأعود لك بعد أيام. براون وفرانك أخبرا بكثير من المعلومات عنك وعن تصرفاتك.

متشل: لا حاجة لأيام ، أنا جاهز للإجابة على أية سؤال بكل صراحة ودقة.
المدقق الأمني: حسنا تفعل لنفسك. أخبرني ببعض التلاعب الذي حصل أثناء تواجدك في إدارة الشؤون الإدارية والمالية للإنتاج النفطي ؟

سكت متشل قليلا: حسنا سأسرد لك ما يجيء في خاطري دون ترتيب أو تنظيم. وأنا واثق بأن هذا اللقاء مسجل عندكم صوتا وصورة، وهناك خلف هذا الزجاج من يراقب كامل حديثنا.
المدقق الأمني: ليس بالصورة التي تتصورها، وليس هذا من شأنك، أجبْ فقط على قدرِ السؤال:
ماذا فعلت ؟
بدأ متشل يسرد ما يرد إلى ذهنه أولا بأول على هيئة نقاط. لم يقاطعه المدقق الأمني؛ لئلا يغير مسار تفكير متشل:

- صيانة مكتب الوزير في الوزارة على السجلات بـ ١٨ مليون دولار. الحقيقة كان ترميما كاملا لبيت الوزير. حتى بركة السباحة بلاطها من الفسيفساء. طلبناه من إيطاليا بطلبٍ خاص. كلَّف مبلغا كبيرا، واضطررنا إلى استقدام فنيين من اليونان وأسبانيا لهذه البركة.
- مضخة البئر العائمة كانت لمزرعة الرئيس الشخصية، كلفت: مائتا ألف دولار. في السجلات كانت المضخة لبئر مدينة عنَّابة لاحتياجات البئر النفطي. هذه مضخة داخلية تحت في البئر في المياه الجوفية، من سيتحقق من هذا ؟
- بيع المواد الصناعية المستوردة من مستودعات الشركة إلى السوق المحلي بأعمال وهمية خارج مباني الشركة.
- التلاعب في كميات الحديد للمنشآت والبنايات الإدارية: نطلب مثلا ١٠٠ طنا للمبنى. المستخدم منها ٨٠ طنا، والعشرين الباقية تباع في السوق السوداء.
- في التعدين: سرقة الذهب في المنجم قبل استلامه وقبل إدخاله إلى نظام التعدين للشركة. ليصعب مراقبة الاختلاف والفروق أو التدقيق فيها. ما دخل النظام هو الموجود في المستودع. ذهبٌ لم يدخل النظام أصلا، فكيف تراقبه. تزوير تصاريح خروجه من الموقع !. وبعض الأحيان نضطر لدفع عمولات لرجال الأمن الوطنيين.
- نظرا لقدرة الشركة الشرائية من السوق المحلي؛ بهدف رفع الحركة التجارية المحلية، ترفع الأسعار على ممثلي الشركة. طلبنا من ممثلي الشركة أن يتعاملوا مع مكتب واحد، وهذا المكتب يكون منسقا لجميع المشتريات المحلية. المشكلة: ممثل الشركة، والمنسق، والتاجر المحلي؛ يرفعون سعر المواد المحلية فقط على الشركة. طبعا هذا، سيرفع تكلفة التشغيل لغلاء المواد الوهمي من السوق المحلي؛ فربما تفضلون الشراء من السوق العالمي. بالتأكيد سيكون السوق الإنجليزي.
- التلاعب بالعقود والمقاولات. التلاعب بجودة العمل: لنقوم بنفس العمل مرتين وثلاثا وأربعا.
- نتلاعب بمواصفات العمل. فلا يوجد عندكم معايير هندسية وطنية. حتى في مساجدكم تسرقون بسبب غياب المعايير الهندسية.
- إرسال للتدريب الوهمي. كأن يحدد أشخاص للتدريب في أوروبا وأمريكا على الورق فقط. المتدرب لا يعلم شيئا عن الدورة، ولا يُرسَل أصلا. كله على الورق. تحول المبالغ التدريبية إلى تلك المعاهد مع

اشتراط نسبة من المبلغ لمن عقد الصفقة. فالمبالغ على تكاليف دورة تدريبية لشخص لم يتدرب، أو لمعهدٍ في بريطانيا لم يقدم دورة أصلا إلا على الورق.

- كما في بعض الأحيان، نغير درجات المتقدمين للالتحاق بالشركة عبر تغيير إجاباتهم قبل دخولها ماكينة التصحيح الآلي. مقابل مبالغ مالية. هذا كثير خاصة مع الأمازيغيين.
- العقود البرمجية للأنظمة الإدارية والمحاسبية في الشركة. يقوم المبرمج المُتعَاقد معه، بسبب معرفته البرمجية للنظام الذي لا تعرفون بنيته البرمجية على وجه الدقة. نطلب من المبرمج بتحويل مبالغ بسيطة يوميا تلقائيا برمجيا من خزينة الشركة إلى حسابات شخصية. هرَّب المبرمج ثمانين مليون في حسابه الشخصي في بريطانيا. لم يسأله المدقق المالي: كم كانت حصتك؛ لئلا يؤثر على سرد متشل.
- تقوم الإدارة العليا في الشركة بسن القوانين والأنظمة بما يناسب أبناءهم. تخصص غير مطلوب، يصير مطلوبا. دراسات عليا لا حاجة لها، يرسل الأبناء للماجستير والدكتوراه على حساب الشركة مع البدلات المالية الباهظة. مبالغ لا تتصورها !. من المهم: أن يرجع الابن أو الابنة من الإيفاد إلى أوروبا وأمريكا في فترة تعيين الأب؛ ليضمن وظيفة مهمة لابنه، مع ضمان برنامجه التدريبي التطويري ليصل إلى مناصب عليا في الشركة في وقت قصير. هذا لا يحتاج إلى ذكاء كبير في التدقيق المالي لمعرفة ذلك. انظر الإدارة العليا وانظر أين أبناءهم وبناتهم.
- شراء السيارات الخاصة للإدارة العليا السنوية المجددة على حساب الشركة.
- نشر ثقافة الإدارة العليا الإنجليزية، لتصطبغ الشركة بالقوانين الإنجليزية؛ حتى في بنود اللبس الملائم في الشركة. هذا ليس له علاقة بالتدقيق المالي مباشرة. لكن سيؤثر في المشتريات والعقود والشركات والصفقات والعمولات. الشركات الإيطالية تسيطر على مشتريات ليبيا، وفي الخليج العربي تسيطر الشركات الأمريكية والأوروبية، وفي سوريا تسيطر الصفقات الروسية. وعلى هذا قس.
- بسبب وجود الثقافة الإنجليزية في الشركة، والتي تسيطر على عقلية الإدارة العليا والمتوسطة، فأية معارضة أو تصادم مع الثقافة الإنجليزية ، سيعاقب عليه الموظف، وربما طُرِد، ومُنع وإيقاف تطوره الوظيفي.

وهؤلاء الذين يرفضون الثقافة الإنجليزية فيهم من العقول والذكاء والمهارات الإدارية العليا؛ بطبيعة الحال ستخسرهم الشركة الوطنية. بالتأكيد لن نتفوق على الثقافة الفرنسية التي استعمرتكم ١٣٠ عاما. لكننا نحن على طريقنا، وثمار ذلك نراها سريعة.

المدقق الأمني: سؤال يا متشل ؟

متشل: تفضل

المدقق الأمني : هل وضعتم أجهزة تصنت في بيوت أو مكاتب الإدارة العليا ؟

متشل: نعم فعلنا.

المدقق: كنت واثقا من هذا. لماذا يا متشل ؟
كان يتجنب مشتل لقاء المدقق الأمني عينا بعين. تكلمَ متشل وعيناه إلى الأرض قائلا: أنت تعلم أن المعلومة هي أخطر شيء عند الإنسان وعلى الإنسان.
المدقق الأمني: أتفق معك. لكن أعطني التفاصيل ؟ أضاف رجل الأمن: لا تقلق، أنت ستُرَّحل إلى بلدك في حال موافقة حكومتك على عرض حكومتنا لأسماء الوطنيين في السجون الإنجليزية.
متشل: أنا متفائل كثيرا بترحيلي. عموما، معرفة القرارات وما يدور في أذهان الإدارة العليا يساعدنا في تهيئة العقود للسنوات القادمة.
فمثلا: ستكون الخطة الخمسية التشغيلية للسنوات القادمة لصيانة معامل التكرير، أو إنشاء معامل جديدة، أو غيره. أو زيادة إنتاج أو تقليل إنتاج. فسيؤثر كثيرا على رجل الشارع الإنجليزي العادي. بل حتى على المطاعم كثرتها وقلتها. هذا على المستوى المحلي.
على المستوى العالمي، ستتأثر العلاقات الدولية بين دولة ودولة. بل التبادل النفطي سيتأثر. فهي حقيقة شبكة متصلة.

الجانب الآخر الذي لا تنتبهون له: هو دراسة أبناءكم وفتياتكم. فأبناء الإدارة العليا ليسوا أولادا عاديين بالنسبة لنا. فقبل ابتعاثهم نحن نعرف ميولهم، ما يحبون وما يكرهون. فهذا نجعل صديقته شعرها أسود، وعيونها خضراء؛ لأنه يفضل هذا النوع من الفتيات. والآخر يفضل الشقراء. إذا كانت ابنة الإدارة العليا عندها ميل إلى الفن. فسنعرف ميولها الأدبي والمسرحي والفني التشكيلي؛ وعليه سنتخذ قراراتنا في التعامل معها. الهدف: رجوعها خادمة لنا، وامتدادا لنا.

المدقق الأمني: معذرة في مقاطعتك متشل. حدَّقَ المدقق الأمني بعينيه بحدة إلى متشل: من أنت بالضبط ؟ سبب سؤالي: هذه المعلومات التي ذكرتها، معلومات للمخابرات وليس معلومات لشركات نفطية ؟!.
ابتسم متشل ساخرا على هذا السؤال: هذه مشكلتكم. نحن لا ننظر إلى الموضوع نظرة سطحية. نحن يا مدقق الأمن نتكلم عن أمن وطني قومي. ومثلك يفهم ما معنى الأمن الوطني القومي.

سأل المدقق الأمني: قبل أن تواصل، هل كان لكم دور مع الجماعات المتطرفة ؟

- نعم بالتأكيد. اخترقت الجماعات المفجرة المكفرة بالتعاون مع المخابرات الوطنية، وصارت تؤجج من الداخل لخلق الفوضى الداخلية؛ أعطانا هذا السيطرة على النفط بطريقة أكبر. الظريف: أنكم لا تثقون بشعبكم، وتثقون بنا !. ألا ترى هذا غريبا !. هذا جو جميل للعمل في بيئة تحبك.

- أيُما سكرتيرة أوروبية جميلة بجمال صارخ، فتهمة التجسس قريبة منها أكبر. وانظر في سكرتيرات الشركة. ولهذا نحتاط لجاسوستنا في بعض الأحيان ألا تكون ذات جمال، بقدر أن تكون ذات دهاء. أشعنا في وسط الأعمال العالمية: أن المعيار العالمي للسكرتيرة: هو السكرتيرة الإنجليزية. فتصورْ كم مقدار المعلومات عندنا عن التجارة العالمية
- وجود السياح الإنجليز، وإنفاقهم ببذخ على شعبكم، هذا له عوائد كبيرة على اقتصادنا. ستشترون بضاعتنا، صدارتنا إليكم ستكبر، وغير ذلك مما يرتبط به. مواقفكم السياسية الدولية يسهل توجيهها لمصالحنا العالمية. بالتأكيد أنت تفهم هذا. ألم تكن زوجة بورقيبة التونسي فرنسية. فكيف كانت تونس مع فرنسا !. بل تجد جوابا لسؤال: لمَ حقدَ بورقيبة هذا الحقد الغير مبرر على المرأة التونسية. الجواب: زوجته فرنسية !.
- لا ادري إذا هذا يعجبك أو يغضبك، سقوط الخلافة العثمانية كان بوجود رجال إنجليز منهم رجل المخابرات لورنس. بالتأكيد قرأتَ عنه. أنتم لا تستفيدون من التاريخ ولو كان قريبا، فضلا إذا كان التاريخ بعيدا.
- نحن صنعنا قانون : " فرق تسد "، فرقهم، اخلق النزاعات بينهم، فيسهل السيطرة والتوجيه. وهذا واقعكم العربي المعاصر. أظنك تتفق معي. هذا أنتم طبقتموه على شعبكم إبان الجماعات المتطرفة. تخترقونهم وتشعلونهم ثم تحرقونهم. علَّقَ متشل بسخريةٍ إلى المدقق الأمني: ربما أنتَ متورط في هذا وليس أنا فقط!.

المدقق الأمني: أرجو ألا يكون حديثك في الجانب السياسي. يهمني الجانب المالي الذي قمتم به في الشركة ؟

- عمولات صفقة الطائرات مع الشركات في أمريكا الجنوبية. واحدٌ من موقعي الاتفاقية كانت حصته ٢٠ مليون دولار. فكيف التوقيع الرئيسي ؟!.
- معذرة، حاويات الخمور العالمية الغير قانونية. مبيعاتها الشهرية ٢٠ مليون. كثير من زبائننا : جزائريون من الطبقة العالية. عليك أن تنظر في هؤلاء يا مدقق. فعندهم كثير من المعلومات التي تهمك. كانوا معنا في سهراتنا الليلية.

أراد متشل أن يواصل حديثه، لكنَّ طرقًا على باب غرفة التحقيق أوقف الحديث. قال المدقق: تفضل. اقترب رجلٌ بلباس مدني من الأذن اليمنى للمدقق الأمني. أخذ المدقق الأمني قلم الرصاص، وصار يديره بين أصابعه، وهو يستمع منصتا. وعرضَ عليه الرجلُ ورقةً، قرأها وكان المدقق أثناءها يلتفت إلى متشل.

تحدثَ المدقق الأمني إلى متشل: أنا مضطر إلى أن نتوقف عن مواصلة حديثنا. ستغادر من هنا إلى المطار. الطائرة في انتظارك مع صاحبيك. حُوِّلت كل حقوقك المالية إلى حسابك كالعادة، وهذه ورقة بمستحقاتك المالية. كان بودي أن اسمع منك أكثر، لكن عندي أوامر بإيقاف التحقيق.

خرج المدقق الأمني ولم يصافح يد متشل القذرة. بعد أسابيع، التقى الهواري بأيمن وأخبره ببعض الذي أخبرتكم به. هذه الاختلاسات المالية والشخصية في إدارة واحدة فقط من تسعين إدارة تقريبا. لا زال التحقيق جاريا مع منير وفريد. مما أخبر به فريد في التحقيق باعتبارهم وكلاء صيانة آلات التصوير في الشركة : أنَّ هذا العقد معهم، جعلهم يستولون على ذاكرة أجهزة التصوير ؛ فكانوا يستعرضون جميع القرارات على مستوى الشركة !.

وحينما حُميت الذاكرات عن طريق إدارة الأمن، صاروا يخترقون الطابعات الجديدة عبر النت الموصلة به، بل إنهم يعمدون في بعض الأحيان، إلى الدخول إلى آلات التصوير لصنع عطل فني في الآلة.

أتعرفُ لماذا يا أيمن ؟

علقَّ الهواري: ما تصورتهم بهذا الإجرام، كانوا يعطلونها لكي: يزيدوا عدد طلبات الصيانة لآلة التصوير والذي يعد دخلا لشركتهم بالتأكيد. والأهم عندهم وهو السبب الثاني: التجسس على الشركة عبر الصور المحفوظة في ذاكرة آلة التصوير .

قال الهواري لأيمن: الغريب وجدنا نسبة ليست بالقليلة للاستخدام الشخصي لآلة التصوير من موظفي الشركة. يصورون كتب أولادهم المدرسية !. ثم أضاف كلاما ثقيلا لأيمن: عقود صيانة آلات التصوير في وزارة الدفاع ووزارة المالية عند شركة منير وفريد بعد مجيء الإنجليز ؟!. هذا عرفناه منهم في التحقيق. "

سكتَ أيمن حائرا قلقا، وقال: نحنُ في ورطةٍ كبيرة ؟!. ولا زال التحقيق جاريا مع منير وفريد.

انتهى